Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
Covenant & Conversation | Acharei Mot | The Courage to Admit Mistakes | The Rabbi Sacks Legacy

"أحَرِي مُوتْ" هو النصُّ الأسبوعِي السادس من كِتاب "فَيِقرا" (أي سِفر اللاويّين)، وهذا النصّ الأسبوعي يبدأ من الآية الأولى من المقطع السادس عشر، ويَنتهِي بِالآية الثلاثين من المقطع الثامن عشر.

الجُرأةُ عَلى الاعتِرافِ بِالخطأ

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

في مُستهلّ حديثي عن موضوع هذا النص الأسبوعيّ من نصوص التوراة، أريدُ أن أستحضرَ زيارة السفير الأمريكي في بريطانيا فيليب ليدَر لي قبل بضع سنوات، فخِلال تلك الزيارة تجاذبنا أطراف الحديث وحدّثني عن مشروع بادرَ إليه هوَ وزوجتهُ عام 1981م، حيثُ أدركوا حينها بأن الكثير من أبناء جيلهم أصبَحوا يتبوؤون مناصبَ مرموقة وحسّاسة في الدولة، ورَبّما يكونُ من المُجدي أن يلتقوا مع بعضهم البعض بِشكل دوريّ لإقامة جلسات حوارٍ ونقاشٍ يَتشاركونَ ويتبادلون فيها الأفكار ويستمعون للخبراتِ والتجاربِ ويقيمون علاقات صداقة بينهم، إضافة إلى التفكير بشكلٍ جماعيّ في التحدّياتِ التي قد تواجههم في السنواتِ القادمة. وبالفعل، بدأ السّفيرُ وزوجتهُ بهذا المشروع وأطلقوا عليه اسم " Renaissance Weekends" (بمعنى لقاءات خلال نهايات الأسبوع من أجل تحقيق النهضة)، وهذه اللقاءات لا زالت مُستمرة حتى وقت كتابة هذه المقالة. لكن كان أكثر جانبٍ مُثيرٍ للاهتمام من وجهة نظري - بحسب ما أخبرني السّفير - هو ما اكتشفهُ السفير وزوجته عن المشاركين في المشروع، فرغم أنهُم جميعهم أشخاصٌ مُميّزون واستثنائيّون في مهاراتهم وقدراتهم، لكن يوجدُ قاسمٌ مُشترك يجمع بينهم جميعاً، **ألا وهو صعوبة اعترافهم بالأخطاء التي يرتكبونها.**

لقد أدركَ السفيرُ وزوجته وجود أمرٍ في غاية الأهمية ينبغي عليهم التعرف عليه، حيثُ يتوجّبُ على القادة على وجه الخصوص أن يتمتّعوا بالقدرة على الاعتراف بأخطائهم عندما يرتكبونها ومن ثُمّ ينبغي عليهم تصحيحها. ومن هذا المُنطلق خطرَت ببال السفير وزوجته فكرةٌ ذكيّة جداً، حيثُ خصّصوا فقرةً مُحددة من اللقاءات التي تُعقد في نهاية كُلّ أسبوع بحيثُ تتحدّثُ فيها شخصية بارزةٌ في مجالٍ معيّن، وأطلقوا على هذه الفقرة عنوان " My biggest blooper" (بِمَعنى أكبرُ خطأ فاضحٍ ارتكبته). وكوني بريطانياً لا أمريكياً، فإنني لم أفهم معنى كلمة " blooper "، لهذا كنتُ مضطراً للبحثِ عن ترجمةٍ لهذهِ الكلمة، فوجدتُ أنها تعني "الخطأ الفاضِح" أو الخطأ المُشين"، بمعنى آخر فإن هذه الكلمة تعني حدوثَ أمرٍ لم يكن يجب أن يحدث، فيشعرُ مُرتكبه بالخجلِ من الاعترافِ بأنّه قام به.

في الحقيقة فإن هـ**ذه الفكرة على وجه التحديد** تمثِّلُ جوهرَ "يوم كيپور" (يومُ الغُفران) في الديانة اليهودية، وحينَ نعود إلى حُقبة بيت المقدس (الهيكل اليهودي) وكذلك زمنِ المشكان، فإننا نجدُ أن كبيرَ الكهنة كان يقوم في يومِ الغفران بالتكفيرِ

عن خطاياه أوّلاً، ثم عن خطايا "عائلته وأسرته المُقرّبة"، ثم عن خطايا بَني يسرائيل كافّة. ومنذ اللحظة التي دُمِّرَ فيها الهيكل اليهودي لم يعد لدينا كبيرٌ للكهنةِ، ولم نعُد نُمارسُ الشعائرَ والمناسِكَ الدينية التي كانَت تُتّبَعُ في يومٍ عظيمٍ كَيوم الغُفران، لكننا لا زِلنا نملِكُ المُناسبة نفسها ولا زلنا نمتلكُ القُدرةَ على الاعترافِ بخطايانا ونحنُ متضرّعونَ إلى الله عز وجلّ طالبينَ منهُ الغُفران. وحينَ نرى النّاس من حولِنا يعترفون بذنوبهم وأخطائهم فإنه سيُصبح من السهل علينا أن نفعل ذلك، وإذا كان أكبرُ الكهنةِ أو أبرزُ شخصيّة دينية قادِراً على الاعترافِ بخطاياه وذنوبه فهذا يَعني أن أي إنسانٍ آخر بمقدوره القيام بذلك.

وقد وضّحتُ عبر مقالة أُخرى مُرتبطة بهذا السياق (أعني مُقدمة كُتيّب الأدعية والصلوات الخاصة بيوم الغُفران) بأنّ الانتقال من أوّلِ يوم غُفرانٍ شَهِدهُ التاريخ اليهوديّ إلى يوم الغُفران القادم من السنة التالية يُمثلُ نقلةً نوعيّة وهامّة في عالم الروحانيّة اليهودية، فأوّلُ يوم غُفرانٍ في التاريخ اليهودي كان بمثابة تتويجٍ لجهود نبيّ الله ورسوله موشيه\موسى من أجل نيلِ المغفرةِ الإلهية لخطيئة بني يسرائيل في حادثة العجل الذهبي، وذلكَ تبعاً لما تُخبرنا به المقاطِعُ 32-34 من سِفر الخروج، حيثُ بدأ موشيه التضرّع إلى الله في السابع عشر من شهر تموز تبعاً للتقويم اليهودي، وانتهى في العاشر من شهر تِشريه، وفي هذا اليومِ نَزلَ موشيه عن قمّة جبل سيناء مُصطحباً معه الزوج الثاني من ألواح العَهد (بعد أن كسر الزوج الأول في المرة السابقة) التي كانَت بمثابة موافقةٍ إلهية على تجديد العهدِ مع بني يسرائيل، لهذا فإنّ تاريخ العاشر من شهر تِشريه هو تاريخُ حُلولِ عيد الغفران الذي يُحييهِ اليهود في كل عام. وهذا كان أوّلَ عيد غُفرانٍ شهِده التاريخ اليهودي، أما يوم الغُفران التالي في السنة التالية فقد تضمّنَ سلسلة من المناسك والشعائر الدينية التي وضّحها المقطع السادس عشر من سفر اللاويين، والتي أُقيمَت جميعها في المشكان بِرئاسةِ أهارون\هارون باعتباره الكاهن الأكبر لبني يسرائيل آنذاك.

إنّ الفرقَ بين اليومين شاسِعٌ جِداً، فموشيه تصرّفَ انطلاقاً من كونه نبياً ورسولاً لله عزّ وجلّ، أما أهارون فتصرّفَ باعتباره كاهِناً. كما أن موشيه كان يرتَجِلُ مُتّبعاً قلبهُ وعَقلهُ في مُستهلّ ردوده على الله عز وجلّ، أما أهارون فقد كان يتّبِعُ مناسِكَ وشعائر دينية مُحددةً ودقيقة جداً، وكل تَفصيلةٍ من تفاصيل تلك الشعائر كانَت منّسقة ومُخططاً لها من قبل. أضِف إلى ذلكَ أن لِقاء موشيه مع الله عزّ وجلّ كان لغايةٍ مُحددة، فكانَ هذا اللقاء بمثابة دراما نادرة الحدوثِ والتكرار بين السماوات والأرض، أما أهارون فكان في موقفٍ مختلفٍ تماماً، فالقوانينُ والتعليماتُ التي كان يتّبعها لم تتغيّر أبداً وكانَت تتكرّرُ في كل عام وتنتقلُ من جيلٍ لآخَر خلال فترة وجودِ الهيكل اليهوديّ.

في الوقت نفسه، فإن دُعاءَ موشيه وتضرّعهُ إلى الله عزّ وجلّ بالنيابة عن بني يسرائيل كان يتّسِمُ بالجُرأةِ والجَسارة، وهي سماتٌ وصفها كبار حاخامات اليهود بعبارة "**حوتسپا كلاپيه شْمايا**"(بمَعنى الجُرأة صوبَ السّماوات)، وذلك لأنّ هذا اللقاءَ قد وصلَ أَوْجَهُ عقِب أن قالَ موشيه هذه العبارات مُخاطباً الله عزّ وجل: "والْآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيئَتَهُم، وإِلَّا فَامْنَحْنِي مِنْ دِيوَانِكَ الَّذِي كَتَبْتَهُ، فَأَسْتَرِيحُ" تبعاً لما تذكرهُ الآية الثانية والثلاثين من المقطع الثاني والثلاثين من سِفر الخروج. في المُقابل، نجدُ أن أهارون كان يؤدّي تلكَ المناسِك في حالةٍ تتسّمُ بالخُضوع والتواضِع والاعترافِ بالذنب، لهذا كانَت هناك مناسِكُ للتطهيرِ وتقديمٌ للقرابين وتكفيرٌ عن خَطاياهُ هو شخصياً وخطايا عائلته وأسرته المُقرّبة بالإضافة إلى خطايا بني يسرائيل كافّة.

بالتالي فقد كان الانتقال من أوّلِ يوم غُفرانٍ شَهِدهُ التاريخ اليهوديّ إلى يوم الغُفران القادم من السنة التالية بمثابة حدثٍ كلاسيكي وصفهُ عالم الاجتماع والفيلسوف المعروف ماكس ويبر ضمنَ مبدأ "روتينيّة الكاريزما"، بمَعنى أن نأخذ لحظة فريدةً أو موقفاً نادراً ثم نُترجمهُ إلى عادةٍ تُصبح تجربة من تجاربِ الذروة التي تُشكّل جُزءاً رئيسياً من حياتِنا. ومن خلال دراستنا للتوراة فإننا لن نجدَ الكثير من المواقفِ التي تحظى بهذا القدر من الحِدّةِ والإثارة مثل موقفِ الحوارِ بين الله عزّ وجل وموشيه فوق جبل سيناء عقب خطيئة العجل الذهبي، لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هُنا: كيف يُمكننا أن ننالَ المغفرةَ الإلهية لِخَطايانا في ظلّ واقعٍ ليسَ فيه موشيه ولا أنبياءُ ولا رُسُلُ ولا حتى أي اتّصالٍ مُباشرٍ مع الله عز وجلّ؟

في الواقع هنالك الكثيرَ من اللحظاتِ العظيمة التي غيّرتَ ولا زالَت تُغيّرُ مجرى التاريخ، لكن ما يُغيّرُنا نحنُ البشرُ هو السلوكيّاتُ الاعتيادية البسيطة التي نقومُ بها على نحوٍ مُنتظمٍ مِراراً وتِكراراً، وحينها تحدثُ حالةٌ من إعادة التهيئة للدماغ بحيثُ تتغيّرُ عاداتنا وسلوكياتنا ومشاعرنا أيضاً، لهذا فإننا نِتاجٌ لتلك العادات والسلوكياتِ والطقوسِ التي نُمارسُها في حياتِنا على نحوٍ مُنتظم.

وبالعودةِ إلى قِصّة لِقاء موشيه بالله عز وجلّ ومُحاولته التشفّع لبني يسرائيل، فإن هذا الموقفَ لم يكن بحد ذاته كفيلاً باستحضارِ أجواءٍ حقيقيّة للتوبّة بين بني يسرائيل. وبالرغم من أن موشيه قد أظهرَ لهُم طبيعةَ الذنبِ الذي اقترفوه إلا أنه لا يوجدُ بين أيدينا أي دليلٌ يُثبتُ أنهُم قد استوعبوا فِعلاً حجم الذنبِ الذي اقترفوه. في المُقابل، فإنّ ما قامَ به أهارون كان مختلفاً تماماً، لأن المناسك والشعائر التي كان يؤدّيها كانَت تتضمّنُ الاعتراف بالذنوبِ والتوبة والبحث عن الطهارة الروحيّة، كما أن تلك المناسك والشعائرَ كانت تتضمّن اعترافاً صريحاً وصادِقاً للذنوب والخطايا التي اقترفها بنو يسرائيل، والأهم من هذا كله أن الاعترافَ يبدأ بالخطايا التي اقترفها كبيرُ الكهنة نفسه.

ومن هذا المُنطلق، فقد تركَ يوم الغُفران بصمةً كبيرة أدّت إلى خلقِ ثقافةٍ لا يخجلُ فيها الناسُ من الاعترافِ بأخطائهم، ولا يشعر أحدهُم بالخَجَلِ حين يقول: "لقد أخطأتُ، لقد أذنَبتُ، لقَد عَصَيتُ"، وذلك عبر امتداد فكرة يوم الغفران من خلال سلسلةٍ من الصلواتِ والأدعية اليهودية التي يُردّدها اليهود على مدار العام، مثل دُعاء **"تَحنون" (الابتهال والتضرّع)** ودُعاء **"فيدوي" (دُعاء الاعتراف بالذنب)** ودُعاءُ **"سْلِيحُوت"(دعاء طلب المغفرة).** وفي يوم الغُفران على وجه التحديد فإننا نضعُ المعاصي والآثام والخطايا التي ارتكبناها في قائمتين اثنتين مُرتّبتين تبعاً للترتيب الهجائي، بحيث يشملُ كل حرفٍ من حروف اللغة ذَنباً مُعيّناً، فتبدأ القائمة الأولى بهذه العبارات: **"أَشَمْنُو" (بمَعنى أخطأنا)،** ثمّ **"بَغَدْنُو"** (بمَعنى خَدَعنا)، في حين تبدأ القائمة الثانية بعبارة **"عال حيط شِحَطانو" (بمَعنى على الخطيئة التي اقترفناها).**

وبالعودة إلى السفير الأمريكي فيليب ليدَر، فقد أدركَ بأن قُدرة البشرِ على الاعتراف بذنوبهم وأخطائِهم ليسَت أمراً اعتيادياً، لأننا حين نرتكبُ خطأً معيناً فإننا نبدأ باختلاق الأعذار والمبرّراتِ، بل ونُنكِر ارتكابنا لذلك ونُحاول إلقاء اللوم على الآخرين. وقد تطرّقَت مجموعة من الكُتب للحديث عن هذه المسألة مؤخراً، منها كتاب "*التفكير داخل صندوق أسود: الحقائق الصادمة حول النجاح، ولماذا لا يتعلّمُ البشرُ أبداً من أخطائِهم*" (*Black Box Thinking: The Surprising Truth About Success (and Why Some People Never Learn from Their Mistakes*) للكاتب البريطاني ماثيو سيّد، وكتاب "*أن تكون مُخطئاً: مُغامرات على هوامش الخطأ*" (*Being Wrong: Adventures in the Margins of Error*) للكاتبة الأمريكية كاثرين شولتس، بالإضافة إلى كتاب "*أخطاء ارتُكِبَت لكنّي لستُ من ارتكبها*" (*Mistakes Were Made, But Not By Me*) للكاتب تقريس وعالم النفس الأمريكي إليوت أرونسون.

وبالنسبة للسياسيّين فإنهم يجدون الاعتراف بالذنب وبارتكابِ الأخطاء أمراً صعباً جداً، والحال نفسه بالنسبة للكثير من العاملين في المجال الصحّي، فالأخطاءُ الطبية (التي بالإمكان تفاديها) تتسبّبُ في أكثر من 400,000 وفاة كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية لوحدها. والحال نفسه ينطبقُ على البنوك والمصارف وخبراء الاقتصاد، حيث أن الأزمة المالية العالمية التي وقعت سنة 2008م قد تنبأ بوقوعها رجل الأعمال الأمريكي وارن بافت منذ سنة 2002، لكن الأزمة المالية وقعت بالفعل بالرغم من تحذيراته وتحذيرات العديد من خبراء الاقتصاد بأن الازدياد الهائل في القروضِ السكنية وزيادة قيمة الديون المرتبطة بتلك القروض ستؤدّيان إلى حالة عدم استقرار مالي.

كما ويتطرّق الكاتبان تقريس وإليوت أرونسون إلى أحداث مشابهة تتعلّق بأداء الشرطة، فعندما يشتبهون بشخصٍ معينٍ لا توجد أدلّة لإدانته فإنهم يمتنعون عن الاعتراف بأن هذا الشخص بريء ولا توجد أدلّة تُثبت إدانته، وعلى هذا المنوال تسيرُ الكثير من جوانب حياتنا، خاصة وأن الاستراتيجيات التي يتبناها البشر للتملّص من الاعتراف بالذنب وارتكاب الأخطاء لا حصر لها، فيقول البعض متهرّباً من المسؤولية: "هذا لم يكن خطأي"، وقد يقول البعض الآخر: "هذا كان أفضل ما يمكن القيام به في ظلّ ظروفٍ كهذه"، في حين قد يُبرّرُ البعض قائلاً: "لم يكن بالإمكان تجنّب ذلك تبعاً للمعطيات التي كانت بين أيدينا في ذلك الوقت". وهناك من يقوم بتحميل مسؤولية الخطأ لغيره مُدّعياً بأنه استندَ إلى معلوماتٍ خاطئة أدّت إلى وقوع ذلك الخطأ، أو ربّما وجّه له أحدٌ استِشارةً خاطئة مما أدى إلى وقوع هذا الخطأ، والقائمة تطول بالأعذار التي يختلقها البشرُ للتملّص من الاعتراف بأخطائهم، بدءاً بالتضليل، مروراً بالإنكار، وانتهاءً بتصوير أنفسهم على أنهم ضحايا.

بالتالي فإننا نحنُ البشرُ نمتلكُ قدرة هائلة على تفسير الحقائق بطريقة تتناسب مع التبريرات والأعذار التي نختَلِقها حين نرتكبُ الاخطاءِ، وفي هذا السياق يتطّرقُ كبار الحاخامات لهذه المسألة (في موضوع تشريعات الطهارة) موضّحين بأنّ "لا أحد يستطيعُ رؤية أخطائه وعيوبه" (تِبعاً لما هو مذكور في المشناه، باب نِغَعيم 2:5). إننا في الحقيقة مُحامون بارعونَ

للدفاع عن أنفسنا عندما يتعلّقُ الأمر بمسألة تقدير الذات، وقِلّة هُم البشرُ الذين يتمتعون بالجرأة الكافية ليقولوا: "لقَد أخطأت" ("حَطاتي" باللغة العبرية)، هذه العبارة التي قالها كبير الكهنة سابقاً، وقالها أيضاً الملك دافيد/داوود بعد أن واجَهَهُ النبي ناتان/ناثان بخطيئته التي ارتكبها في تدخّله في قضيّة أوریاه/أوريا الحثي وباتشيڤع/بثشبع (تِبعاً لما هو مذكور في سفر شموئيل الثاني 12:13).

بالتالي فإنّ الديانة اليهودية تُقودنا إلى اكتساب القدرة على الاعتراف بأخطائنا من خلال ثلاث طرق رئيسية:

أوّلاً: من خلال مساعدتنا على إدراك حقيقة أن الله عزّ وجل يغفِر الذنوب والخطايا، كما أنه لا يطلبُ منّا ألا نُذنِبَ أو نخطئ، لأنه يعلمُ مُسبقاً أن القُدرة على الاختيار هي هِبةً مَنحنا إياها وقد يُساء استخدامها أحياناً، بالتالي فإن ما يطلبهُ منّا هو أن نعترفَ بأخطائنا ونتعلّم منها ثم نقومُ بتصحيحها وعدم ارتكابها مرّة أخرى.

ثانياً: تَفصِلُ الديانةُ اليهودية بشكلٍ تامٍ بين **"الخطيئة"** (الفِعل) وبين **"المُخطِئ"** (الفاعِل)، إذ بإمكاننا دوماً أن نُدينَ ونستنكر الخطيئة دون أن نفقد الثقّة بمُرتكبها أو نتخلّى عنه.

ثالثاً: إن الهالةَ الروحانية التي يجلِبها يوم الغُفران تمتدّ على مدار السنة، وتُساعِدُ على خلقِ ثقافةٍ تقومُ على الصدقِ، بحيثُ لا يخجلُ الفردُ من الاعتراف بالأخطاء والذنوب التي ارتكبها. وعلى الرغم من أن يوم الغُفران يُركّزُ على الذنوب والخطايا التي ارتكبها الإنسانُ بحقّ الله عزّ وجل، إلا أنّ مُجرّدَ قِراءةٍ سريعةٍ لِقائمتي الاعتراف التي يقرأهُا اليهود في هذا العيد، أي قائمة **"أشَمنو"** وقائمة **"عال حيط شِحَطانو"**، ستجعلنا نُدركُ بأن غالبيةَ الذنوب التي نعترفُ بارتكابها تتعلّقُ بعلاقتنا مع الآخرين، لا مع الله فقط.

لهذا، فإنّ ما أدركه السّفير الأمريكي فيليب ليدَر لاحِقاً حولَ أبناء جيله عالي المكانة، هو في الحقيقة أمرٌ تحدّثَت عنه الديانة اليهودية وتطرّقَت إليه منذ زمنٍ طويل، حيثَ أن رؤية عِلية القومِ ونُخبته يعترفون بذنوبهم وأخطائِهم تؤثرُ بعمّقٍ شديدٍ على باقي أبناء المُجتمع. وقد كان أوّل يهوديّ يعترفُ بِخطأه وذنبه كان يَهوده/يهوذا، حين اتّهم تمار تُهمة باطلة بالزّنا، وحين اكتشفَ أنها بريئة من هذه التهمة قال: **"هِيَ أَبَرُّ مِنِّي"** (تبعاً لما تذكره الآية السادسة والعشرون من المقطع الثامن والثلاثين من سفر التكوين). ومِما لا شكّ فيه أن هذا الأمر لم يأتِ من قَبيل الصُّدفة، لأن كلمة "يهودَه" تأتي من نفس الجذر العبريّ لكلمة **"ڤيدوي"**، بمَعنى أن تسميتَنا باليَهود "يهوديم" جاءَت انطلاقاً من امتلاكنا للجُرأة الكافية على الاعتراف بأخطائنا وذنوبنا *، خاصة وأنّ النقد الذاتي الصادقّ هو أحدُ أبرز مظاهر العظمة في عالم الروحانيّة بشكل عام، وفي الديانة اليهودية على وجه الخصوص.

***مُلاحظة توضيحية من المترجم**: الإسمان "يهودَه" و"يَهوديم" أيضاً مشتقان من الفِعل "هودَه" باللغة العبرية والذي يَحملُ معنى الحمد والاعتراف بالذنب. تبعاً لما تذكره الآية الخامسة والثلاثون من المقطع التاسع والعشرين من سفر التكوين والتي تقول: "وحَملتُ أيضاً، وولدتُ ابناً، وقالَت هذه المرّة أشكرُ الله، لذلك أسمتهُ يهودَه، ووقفَت عن الولد".

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*